الانثروبولوجيا الدينية والاجتماعية تظهر جليا بالزوايا الصوفية بتصديها للاستعمار.

Religious and Social Anthropology Appears Clearly in the Sufi Alzawaya by Confronting Colonialism.

د. محمد موسى فقرا

2023.

تلخيص

يتناولُ المقالُ" الإنثروبولوجيا الدّينيّة والاجتماعيّة تظهرُ جليًّا بالزّوايا الصّوفيّةِ بتصدّيها للاستعمارِ". إذ يهدفُ المقالُ إلى إلقاءِ الضّوءِ على الّدورِ الّذي لعبَتْهُ الزّوايا الصّوفيّة في التّصدّي للغزاةِ والمستعمرين لأراضي بلاد المسلمين. إذ يتجلّى لنا في المقالِ الدّور الإيجابيّ للزّوايا الصّوفيّة عامّةً في التّصدّي للمستعمرين في بلادِ المسلمين.

كلماتٌ مفتاحيّةٌ: الزّوايا، الطُّرُق الصُّوفيّة، الإنثروبولوجيا الدّينيّة، الإنثروبولوجيا الاجتماعيّة، الصّوفيّة.

Abstract

The article deals with "Religious and Social Anthropology that Appears clearly in the Sufi Alzawaya by confronting colonialism". The article aims to shed light on the role played by Sufi orders in confronting the invaders and colonizers of the lands of Muslim countries. The positive role of Sufi orders in general in standing up to the colonialists in Muslim countries becomes clear to us in the article.

Keywords: Alzawaya, Sufi orders, religious anthropology, social anthropology, Sufi.

المقدّمة

يتناولُ المقالُ المعنوَن ***"الانثروبولوجيا الّدينيّة والاجتماعيّة تظهر جلّيا بالّزوايا الصّوفيّة بتصدّيها للاستعمار"***، دور الزّوايا الصّوفيّة عامّة في تصدّيها للاستعمار الأجنبيّ في البلادِ الإسلاميّةِ، وقد تمّ اختيار هذا الموضوع لإبرازِ راهنيّه وقدرة السوسيولوجيا وخاصّة الإنثروبولوجيا الدّينيّة والاجتماعيّة على دراسةِ دور الزّوايا الصّوفيّة في تصدّيها للاستعمار الأجنبيّ، وكان هذا التّصدّي يرتكز على عدّةِ جوانب منها التّصدّي من النّاحية الدّينيّة، الاجتماعيّة والثّقافيّة أيضًا. سيتمّ التّطرّق إلى الطّرق الصّوفيّة عامّة والمقال لا يقتصر على طريقةٍ معينّةٍ أو دولة معيّنة والهدف من المقال هو لإبراز ذلك الدّور الإيجابيّ للزّوايا الصّوفيّة بتصدّيها للاستعمارِ الأجنبيّ في بلادِ المسلمين. ولإظهارِ دور الزّوايا الصّوفيّة من المنظور الإنثروبولوجي الدّينيّ الّذي هو مجال يختصّ بدراسةِ العلاقة بين المقدس والمجتمع، ويركّز أيضًا هذا المجال على شرح العلاقة بين الإنسان الخارق للطّبيعة والمعتقدات والممارسات المرتبطة بين المؤسّسات، فنرى بأنّ الزّوايا الصّوفيّة كونها تربطُ بينَ المقدسِ والمجتمعِ ككتلةٍ واحدةٍ وكجسدٍ واحدٍ بتصدّيها للاستعمارِ الأجنبيّ(الجوهريّ 2007 : 13-24)، كما وكان للإنثروبولوجيا الاجتماعيّة والّتي ترتكز بمفهومها على السّلوكِ الاجتماعيّ والّذي يدلُّ على المظهرِ الأساسيّ في حياةِ الجماعةِ الإنسانيّة دورًا هامًّا تجلّى في مقاومةِ الزّوايا الصّوفيّة للاستعمارِ، إذ يظهر هذا المجال الإنثروبولوجي الاجتماعيّ كونه يشمل النّظمَ الّتي تؤلّفُ إطارًا لأنواعِ السّلوكِ جميعًا سواء كان فرديًّا او اجتماعيًّا (هرسكوفيتز 1974 : 20-21).

المبحث الأوّل

الإطار الّنظريّ والمنهجيّ للبحث

أوّلا: هدف المقال

الكشفُ عن دور الزّوايا الصّوفيّة في التّصدّي للاستعمارِ الأجنبيّ في البلادِ الإسلاميّةِ، من المنظورِ الإنثروبولوجي الدّينيّ والاجتماعيّ.

ثانيًا: أهميّة المقال

يُعتَبرُ موضوعُ المقالِ "الإنثروبولوجيا الدّينيّة والاجتماعيّة تظهرُ جليّا بالزّوايا الصّوفيّة بتصدّيها للاستعمارِ"، من المواضيعِ المهمّةِ في مجال الإنثروبولوجيا عامّةً والإنثروبولوجيا الدّينيّة والاجتماعيّة خاصّة وتنطلقُ أهميّةُ المقالِ من خلالِ:

1)ارتباط موضوع الزّوايا الصّوفيّة بتصدّيها للاستعمارِ بتحقيقِ الأهداف من قبَلِ الأفرادِ المنتمين إلى الطّرق الصّوفيّة في البلادِ الإسلاميّة.

ثالثًا: تحديد مصطلحات البحث

بالنّسبةِ لموضوعِ الزّوايا الصّوفيّة وتصدّيها للاستعمارِ بوجهاتِ نظرٍ متعدّدةٍ ومتباينةٍ فمنها ما يدعو إلى تدعيمِ دورِ الزّوايا في الّتصدّي للاستعمارِ الأجنبيّ في بلادِ المسلمين، ومنها من يتّخذُ اتّجاهًا مناهضًا لدورِ الزّوايا خاصّة والطّرق الصّوفيّة عامّةً والتّقليل من دورِهما في مواجهةِ الاستعمارِ.

المبحث الثّاني: الطّرق الصّوفيّة تتصدّى بزواياها للاستعمارِ الأجنبيّ في البلادِ الإسلاميّةِ.

لعبَت الطّرقُ الصّوفيّة [1] بزواياها[2] أدوارًا مهمّةً في الحياةِ الدّينيّة والاجتماعيّة، الثّقافيّة، وفي الحياةِ السّياسيّةِ، ذلك أنّها استطاعَت أن تحفظَ بلادَ المسلمين في عصورِ الجهلِ والظّلمات، كما وكان لرجالِ الزّوايا الصّوفيّة الدّور المهمّ في تعليمِ أفرادِ المجتمعات الإسلاميّة، وبثّ العلمِ في صدورِ الرّجالِ، فالزّوايا

[1] تعريف الطريقة: في اللغة هي السيرة، اما اصطلاحا تعني المسلك عند الاستعمال، ويرد مصطلح الطريقة والطرق في مقدمته كوصف لجماعة المتصوفة فيما سلكوا من السبل، يقول ابن خلدون: "وتبعهم في ذلك اهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقتهم من بعدهم"، انظر: **ابن خلدون**. المقدمة، دار مكتبة الهلال،بيروت،١٩٩١،ص٢٩٦.

[2] الزاوية الصوفية: تكونت في عصور الإسلام المختلفة وهي اشبه بحلقات التعليم واشتهرت بذلك حلقات الصوفية وهو موضع معد للعبادة والايواء واطعام الواردين والقاصدين، وتعرف بانها مدرسة دينية. وكثيرا ما يتداخل مدلول اصطلاح ومضمون "الزاوية" مع اصطلاح "الرباط" لتقاطع وتداخل ادوارهما **الجهادية** والتعبدية والايوائية. وعند الفقهاء والصوفية تعبر الزوايا عن شيئين: أولهما البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد والثاني، المكان الذي يلتقي فيه صالحوا المؤمنين لعبادة الله والتفقه في أمور الدين، انظر: **حجي، محمد**. الزوايا الولانية ودورها الديني العلمي والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة،١٩٨٨،ص٨١.

الصّوفيّة أمثال الزّوايا القادريّة، والرّفاعيّة، والبدويّة، والنّقشبنديّة، وغيرها هي الّتي كوّنَت طبقةً فاصلةً من العلماء والفقهاء وحفظةِ القرآن الكريمِ(المدنيّ 2008 : 465).

حيثُ لعبَت الزّوايا الصّوفيّة أدوارًا هامّةً في التّصدّي للاستعمارِ، إذ تعدّدَت هذه الأدوارُ في **وظائف عديدة** منها:

الوظيفة الدّينيّة للزّوايا: إذ شجّعت الزّوايا المبنيّة في الغالب بعيدةً عن المدنِ وبعيدًا عن الحياةِ المدنيّةِ، التّظاهرات المختلفة للحياةِ الدّينية، ولما كانت توفّر الخلوةَ الرّوحيّة بشكلٍ موات للغاية، فقد سمحت لأتباعها أن يزاولوا حياةَ الطّهارة، كما وبلورَت الزّوايا حياةً دينيّةً جماعيّةً منظّمةٍ بإحكامٍ وشكلًا من التّقوى المنهجيّة الرّامية للخلاصِ المستقبليّ(مراد 2007 : 74-76)اهتمّت بتحفيظِ القرآن وذلك ساعد على نشرِ الإسلامِ في المواطن والأصقاعِ البعيدةِ، الّتي لم يكن قد وصل إليها خاصّة الأقاليم الصّحراويّة النّائية هذا من النّاحية الدّينيّة(بوعريز2013 : 106).

الوظيفة الثّقافيّة للزّوايا: فقد تعزّزت وتوسّعت هذه الوظيفة في كونِ الزّوايا مدرسةً سعتْ إلى الحفاظِ على اللّغةِ العربيّةِ والثّقافة الإسلاميّة ونشرها بشكلٍ واسعٍ، وبذلك حافظَت على الهويّةِ والشّخصيّةِ الوطنيّةِ(فركوس2013 : 585). وذلك من خلال الإنفاقِ بسخاءٍ على تعليمِ الثّقافةِ، وتدريسها ونشرها في كلِّ أوساطِ المجتمعِ الإسلاميّ وكان ذلك شكلًا من أشكالِ مقاومةِ الجهلِ، ونشر المعرفةِ والعلمِ وخرّجتْ أجيالًا منَ العلماءِ الكبارِ، الّذين كان لهم دورُهم الرّائد في التّطوّر الفكريّ والثّقافيّ الجهاديّ(بو عزيز1991 :11)، فعلى سبيلِ المثال دعا الإمامُ أبو حامد الغزاليّ (ت:1111م) وهو من مشاهير أئمة الصّوفيّة إلى الجهادِ ضدّ العدوِّ الّذي أرادَ استعمارَ بلادِ المسلمين(الغزاليّ 1963 :ج1، 267)، الشّيخ عزّ الدّين بن عبد السّلام(ت 1262م) الّذي قاومَ الصّليبيّين لكونِهم أرادوا احتلالَ واستعمارَ بلادِ المسلمين (السبكي 1964:ج8 ،240)، أبو الحجّاج يوسف بن محمّد بن عبد الله بن يحيى البلّويّ المالقيّ (ت:1207) وهو من الصّوفيّين المغاربة الّذي قامَ الأعداء المعتدين على بلادِ المسلمين(الذهبيّ 1990 : 169)، الشّيخ عبد القادر الجيلانيّ الّذي جمعَ مريديه القادرين وحثّهم على الجهادِ ضدّ الغزاةِ(فقرا 2014 : 15-22)، الشّيخ البدويّ(ت : 1276) الّذي لعبَ

دورًا في معركةِ المنصورةِ وأبلى بلاءً حسنًا ضدّ المستعمرين والغزاةِ لبلادِ المسلمين (التفتازانيّ 1976 : 294)، الأمير عبد القادر بن الشيخِ محي الدّين شيخ زاوية القيطنة بمعسكرِ وثورةِ الشّيخِ بوعمامة اللّذيْن قاومَا الاستعمارَ الفرنسيّ في بلادِ المغربِ العربيّ (جاب الله 2013 : 144)، وغيرهم من رجالِ ومشايخ الصّوفيّين الّذين قاوموا الاستعمارَ في عصورٍ مختلفةٍ.

فالزّوايا رغمَ مقاومةِ الإدارةِ الاستعماريّةِ لها، ومحاربتِها فإنّها احتضنَت الثّقافةَ العربيّةَ الإسلاميّةَ ونشرَت الفكرَ والثّقافةَ والتّعليمَ في أنحاءِ العالمِ الإسلاميّ، كما قاومَتْ سياسةَ الاستعمارِ والتّنصيرِ الّتي حاولَت الإدارةُ الاستعماريّةُ أن تطبّقَها لتمسحَ البلادَ وأهلَها وحضارتَها(بو عزيز 1991 :11).

الوظيفة الاجتماعيّة: فقد لعبَت الزّوايا الصّوفيّة دورًا اجتماعيًّا لا يُستهانُ بِهِ، حيثُ فرضَتْ بعضُ الزّوايا انضباطًا اجتماعيًّا قائمًا على احترامِ التّعاليم القرآنيّةِ والعاداتِ القديمةِ، وتعليم مبادئ الأخلاقِ الاجتماعيّة، والاحترام والتّسامح(مراد 2007 :76). كما ولعِبَتْ دورًا هامًّا في إنهاء الخلافاتِ والخصوماتِ بينَ النّاسِ ، وأفراد وجماعات وذلك بفضلِ مكانةِ شيوخِها ومقدّميهم ، وقلّلت منَ الخلافاتِ والمشاكل بين النّاسِ (بو عزيز 1991 :345).

الوظيفة السياسيّة: كان للطّرقِ الصّوفيّةِ تأثيرٌ كبيرٌ على الحاكمين والمحكومين معًا، فالحاكمون يتجنّبون الاصطدامَ بها، ويقدّمون لها كلّ ما تطلبُ لأنّهم يتخوّفون من أن تسلّطَ عليهم طبقةَ العامّة الّتي تطيعُهما الطّاعةَ العمياءَ، وتنقادُ لها ولا تخالف رأيها أبدًا، والمحكّمون يكنّون لهذه الطّرق المتمثّلة بزواياها نوعًا من القداسةِ المستمَدّةِ من الدّينِ (بو عزيز 1991 :345).

الخاتمة

الزّوايا والطّرُق الصوفيّة كانت تشكّلُ أقطابًا للمقاومةِ وخلايا للرّفضِ ومراكزَ للثّوراتِ المسلّحةِ، منذُ دخولِ المستعمر ومن هذه الطّرق نجدُ طريقةَ الشّيخِ عبد القادر الجيلانيّ -الطّريقة القادريّة- من بين الطّرقِ الأكثر عداءً للاستعمارِ، ونتيجةً لذلك أدركَ أصحابُ الطّرقِ الصّوفيّةِ بأنَّ زواياهم كانت عُرضةً

لغزوِ الاستعمارِ لها، وقد نجحَ الاستعمارُ في بعضِ الأماكن من إضعافِ الزّوايا الصّوفيّة الّتي لعبَتْ دورًا أساسيًّا في التّصدّي للمستعمرين. ولكنَّ القسمَ الأكبرَ من الزّوايا استمرَّتْ بمقاومةِ الاستعمار الأجنبيّ في البلادِ الإسلاميّةِ واستمرَّتْ في مواصلةِ المسيرةِ الجهاديّةِ وألحقَتِ الأضرارَ والخسائرَ الفادحةَ في صفوفَ المستعمرين وعلى تلك المقاوماتِ تمَّ جلاء المستعمرين من البلادِ الإسلاميّةِ.

المصادر

ابن خلدون، عبد الرحمن. ***المقدمة***، دار مكتبة الهلال، بيروت،١٩٩١.

بو عزيز، يحيى. ***الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه ١٩١٢-١٩٤٨***،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩١.

بو عزيز، يحيى. ***المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين ١٩-٢٠***، مجلة اللغة العربية، العدد السادس،٢٠١٣.

التفتازاني، أبو الوفا الغيمي. ***مدخل الى التصوف***، القاهرة، ١٩٧٦.

جاب الله، طيب. ***دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري***، العدد١٤، ٢٠١٣.

الجوهري، محمد. ***مقدمة في دراسة الانثروبولوجيا***، القاهرة، ٢٠٠٧.

حجي، محمد. ***الزاوية الولانية ودورها الديني والعلمي والسياسي***، مطبعة النجاح الجديدة،١٩٨٨.

الذهبي، محمد احمد بن عثمان شمس الدين، ***تاريخ الإسلام ونيلة***، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ١٩٩٠.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي. ***طبقات الشافعية الكبرى***، تحقيق، محمود محمد الطناجي، مصر، ١٩٦٤.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. ***احياء علوم الدين***، ج١، بيروت،١٩٦٣.

فركوس، صالح .***تاريخ الثقافة الجزائرية من العهد الفينيقي الى غاية الاستقلال***، ج١،الجزائر،٢٠١٣.

فقرا، محمد. ***عبد القادر الجيلاني وطريقته الصوفية القادرية***، مطبعة بئر المكسور،٢٠١٤.

المدني، احمد توفيق. ***كتاب الجزائر***، دار البصائر، الجزائر،٢٠٠٨.

مراد، علي. ***الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر ١٩٢٥-١٩٤٠***، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي، دار الحكمة، الجزائر،٢٠٠٧.

هرسكوفيتر، ميليفل. ج. ***أسس الأنثروبولوجيا الاجتماعية***، ترجمة رباح النفاح، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٤.